الأبعاد المعرفية والخلقية في التراث الشعبي الموريتاني
(قراءة في الأمثال الحسانية)

د. محمدو محمدن أميّن
جامعة نواكشوط موريتانيا

ملخص

الأمثال ركن بالغ الأهمية من المأثورات الشعبية لما تمتازبه من تأثير جراء سهولة الانتقال أفقيا وعموديا نظرا لعباراتها الموجزة ودلالتها الواضحة. لذلك فهي من أشكال التعابير الثقافية التي لا تحتاج تأهيلا معرفيا خاصا، إذ يستوي الجميع في استيعابها واستثمارها في سياقاتها الصحيحة.

يسعى هذا البحث إلى تقديم قراءة سريعة في الأمثال الشعبية الموريتانية من خلال عينة تضم 53 من الأمثال الحسانية، أي تلك المتداولة باللهجة لا باللغة العربية الفصحى.

وقد حرصنا على تنويع هذه العينة حتى تغطي العديد من مجالات الحياة الموريتانية: العلاقات بين الأفراد، الصلات بين الفئات الاجتماعية، المنظومة الثقافية، الأنشطة الاقتصادية، طرق التكيف مع المحيط، وسائل تدبير الحياة...

وتعطي هذه العينة للدارس تصورا عن بعض ملامح تميز المجتمع الموريتاني في نظرته لذاته وتعامله مع البيئة المحيطة به وقدرته على التكيف مع الظواهر ومواكبة التحولات.

Résumé

Les proverbes constituent un important pilier du folklore grâce à leur influence résultant de la facilité de leur diffusion horizontale et verticale en raison de leurs expressions concises et de leur signification claire. Par conséquent, ils représentent une forme d'expression culturelle qui ne requiert une qualification cognitive particulière, car tout le monde les assimile et les investit dans leurs justes contextes.

La présente étude vise à fournir une lecture rapide des proverbes populaires mauritaniens à travers un échantillon de 53 proverbes hassanya, c'est-à-dire ceux véhiculés par le dialecte, non par l'arabe classique.

Nous avons tenu à diversifier cet échantillon pour couvrir de nombreux domaines de la vie en Mauritanie: les relations entre les individus, les liens entre les groupes sociaux, le système culturel, les activités économiques, les façons de s'adapter au milieu et les moyens de gestion de la vie...

L'échantillon donne au chercheur une vision de certaines caractéristiques marquant la société mauritanienne dans sa vision de soi-même, son interaction avec le milieu environnant et sa capacité de s'adapter aux phénomènes et à accompagner les changements.

مقدمة

ينبع الاهتمام بالمأثورات الشعبية -بما فيها الحكم والأمثال والحكايات والألغاز- من كونها من أكثر الوسائل ملاءمة لتناقل الأفكار وتوضيح التصورات وشرح الواقع بتجلياته المختلفة. ذلك ما جعلها تحتل مكانة مركزية بالنسبة لمختلف العلوم الإنسانية من تاريخ وأنتروبولوجيا ولسانيات، إلخ، حتى أن هذه المأثورات غدت نقطة تقاطع بين المهتمين بتلك العلوم.

وبالفعل فإن هذا الصنف من التراث الشعبي يمارس تأثيرا كبيرا في المنظومة الثقافية لمختلف الشعوب على المستويين الأفقي والعمودي.

وتعود قوة تأثير الأمثال والحكايات والأساطير -من بين أمور أخرى- إلى تصميمها الموجز وبنيتها التركيبية المحكمة وإيقاعها الموسيقي المتناسق ولغتها الواضحة وبنيتها الحكائية السلسة. وكلها أمور تسهل استظهارها وتداولها بمرونة وانتقالها من جيل إلى جيل وعبر مختلف الأوساط والفئات بغض النظر عن مستوياتها الثقافية والعلمية.

يسعى هذا البحث إلى تقديم قراءة سريعة في الأمثال الشعبية الموريتانية من خلال مدونة مجتزأة ستركز على الخلفيات المعرفية والخلقية لهذا النمط من الثقافة الشعبية علّ استنطاقَها يلقي مزيدا من الضوء على جوانب من تميز هذا المجتمع في نظرته لذاته وللأشياء من حوله، وفي إدارته للعلاقة بين مكوناته ضمن ديناميكية تطبعها القابلية الخارقة للتكيف مواكبة للتحولات.

مضامين الأمثال الشعبية

1. في المفهوم والوظيفة

تناول المعجميون العرب القدماء مفهوم المثل وما اعتراه من تحولات حسب سياقات عديدة. فورد في لسان العرب أن «مثل: كلمة تسوية، يُقال هذا مِثله و مَثله كما يُقال شِبْهه وشَبَهه [...] والمَثَلُ: الشّيء الذّي يُضرب لشيءٍ مثلاً فيُجعل مثله [...] وقد يكون المثل بمعنى العبرة»1.

وإذا اعتبرنا أن ابن منظور يمثل خلاصة المعجمية العربية القديمة، فإننا بالاعتماد على ما أورده، يمكن أن نلاحظ مدى اهتمام المعجميين العرب بضبط مفهوم المثل وعنايتهم بتحديد مشمولاته ووظائفه (الضرب «لشيء مثلا» وأخذ العبرة من شيء)، وهو اهتمام شمل فضلا عن المعجميين علماء اللغة على اختلاف مشاربهم، حيث ألفوا في الأمثال جمعا ودرسا2، فاعتبروها موضوعا جادا يستحق الدرس والعناية مثل غيرها من مجالات اللغة والأدب والفكر.

ولم يكن الموريتانيون -قديما ولا حديثا- بدعا من المؤلفين العرب فيما يخص الاهتمام بالأمثال وتدوينها. ففي كتاب الوسيط3 يفرد أحمد بن الأمين الشنقيطي بابا خاصا بالأمثال الشعبية أورد فيه حوالي 205 من الأمثال4.

وقد أتبع هذا الجهد بمجاميع من الأمثال الشعبية ظلت تتزايد خلال السنوات الأخيرة5.

وليس من المستغرب أن ينال المثل كل هذا الاهتمام، فهو خزان تجارب الشعوب وعنوان هويتها وتعبير عن وعيها الجمعي وطريقتها في العيش وآلياتها لتحقيق التعايش داخل مكوناتها وكيفيات تأقلمها مع محيطها البشري والطبيعي، وهو مقياس لمرجعياتها الثقافية ومعتقداتها الدينية....

فالمثل ببنيته اللغوية المركزة البسيطة قد شكل قاعدة لبناء وعي الشعوب وأساسا لتوحيد منظومتها المعرفية. فإذا كانت المعارف العلمية منغلقة إلا على من كان له حظ من التعليم والدرس، وبالتالي فإن إشعاعها يخترق البنية المجتمعية على المستوى العمودي فحسب، فإن المثل يستوي في حفظه واستظهاره، ومن ثم في استيعابه واستثماره، الأمي والمتعلم والعالم ومن هو دون ذلك. إنه يخترق المجتمع بصفة أفقية تجعل الجميع على نفس المستوى من الاستفادة من محصوله المعرفي وطاقته التعبيرية.

وليس غريبا أن يخدم المثل المجموعة الثقافية المنتجة له بنفس المستوى، إذ هو خلاصة تجربة مجتمعية لا فردية، تجربة ليست خاصة بمجموعة من المجتمع دون أخرى، ولا ينفي هذا بطبيعة الحال إمكانية فردية النشأة، ولكن ما يعطي المثل هويته بوصفه مثلا هو مبدأ المثلية الذي

أشير إليه أعلاه في التعريف، فعبر هذه المثلية ينطلق المثل من منشئه (أو أصل مضربه الفردي) إلى أفق التجربة العامة (أي إلى حيث يغدو مثالا لكل حالة مشابهة).

وإذا كانت مختلف أشكال التعبير الثقافية للشعوب تحوي عناصر قابلة للاستثمار في الدفع بتنمية وتحديث بلدانها، فإن خاصية الثقافة الشعبية بوجه عام والأمثال بوجه أخص، عن غيرها من تجليات الثقافة، هي أنها ثمرة ناضجة لا تستدعي تأهيلا معرفيا يتطلب الوقت والجهد، إذ يستوي الجميع في فهمها واستثمارها في سياقاتها الصحيحة. وبالتالي يمكن التعويل على الثقافة الشعبية أكثر من غيرها بالنسبة للشرائح الأكثر استعصاء على الاندماج في حركة التغيير والتحديث.

وتشكل الأمثال بالذات آلية متميزة في هذا السياق نظرا لاختصار عبارتها ووضوح دلالتها وعلوقها بالوجدان وانغراسها في اللاوعي الجمعي.

2. مجالات الاستعمال

لعل الاستجابة للهم الإيديولوجي التحديثي الذي نعتقد أن مهمة الباحث عنه، تستدعي في نظرنا الالتزام به والعمل انطلاقا منه -تقتضي منا أن نستخرج من منظومة الأمثال الشعبية الحسانية في موريتانيا جملة من هذه العناصر التي يمكن استثمارها في الدفع بحركة المجتمع إلى الأمام. وقد حاولنا جمع مدونة نوعية ارتأينا تبويب عناصرها على النحو التالي:

أولا. في مجال الحياة الاجتماعية

لقد كرسنا معالجتنا لهذا البعد على النصوص ذات الصلة بمنزلة المرأة ومكانة المسنين. ذلك أن طبيعة النظرة إلى فئتيْ النساء والمسنين شكلت على الدوام خصوصية من خصوصيات المجتمع الموريتاني.

أ. النظرة إلى المرأة

النماذج6:

1. الِّ امعاه المرأة امعاه مولانا7
2. الِّ باتت عليه الضفيرة تصبح عليه اللحية8
3. لعليات اعمايم الأجواد وانعايل الأكلاب9
4. المرأة أخير فالها من احجابها01

5. اعط للمرأة اشبر تطامه اذراع[11]
6. الّ انزاد بأكافه ما انزاد[21]
7. المرأة زربايه[31]
8. اتوامي الطفلة ألّي أكبر من اخلاكتها[41]

تعكس هذه المجموعة النظرة إلى المرأة من زوايا مختلفة:

- ففي النموذجين الأول والثاني يتم التركيز على الدور الحيوي للمرأة في مجتمع بدوي ظل دائما يسند إليها أدوارا لا تضطلع بها في فضاءات اجتماعية محيطة.

- وفي النموذجين الثالث والرابع نجد تعبيرا عن مكانتها السامقة، لدرجة تصل حد التفاؤل بما يصدر عنها من فأل، فكأنها مخلوق مبارك. ولا نريد أن نوغل هنا في استغلال معطيات التحليل النفسي، ولكن لنا أن نتساءل عن علاقة هذا الإحساس بما عرف في مراحل معينة ولدى أقوام بالذات من تقديس الأنثى وتأليهها؟!

- وفي المثال الخامس ترتسم صورة الطموح غير المحدود لدى النساء في هذا الركن القصي من دار الإسلام.

- ونجد في المثالين السادس والسابع صورة ملتبسة يمكن قراءتها دون تمعن كما لو كانت نوعا من التبرم بالمرأة، غير أن نظرة متأنية تتجاوز معطيات الملفوظ المبتسرة وتنظر إليه في علاقته بسياقه يمكن أن تستشف من هذه الصياغة نوعا من تعظيم المسؤولية عنها.

- وفي المثال الأخير نرصد نظرة مغايرة للنظرة الإيجابية السائدة إلى الأنثى باعتبارها عنصرا غير مرغوب فيه. ويمكن هنا أن نلحظ من خلال هذا المثال ازدواجا غريبا بين الاحتفاء بالنساء وتقديرهن وإعطائهن الأهلية التامة، وبين النظرة السلبية لدى العديد من أوساط المجتمع إلى المولودة الأنثى. فلماذا ينظر المجتمع بريبة إلى الوليدة ويحتفي بها بعد أن تشب عن الطوق؟! أهو التسليم أم الغيرة على المرأة والحرص والخوف من غدر الزمان؟ أم هو الإرث الجاهلي يحفر لنفسه مكانا مهما تضاءل؟

ب. مكانة المسنين

النماذج:

1. الشيب وقره الله[51]
2. الشيب ما يحمل العيب[61]

3. إشوف الشيخ المتكئ الّلي ما شاف أفكراش الواقف71

تبرز هذه النماذج -على قلتها- نظرة المجتمع الموريتاني إلى المسن من حيث قيمته في المجتمع ودوره في توجيهه وترشيده والحفاظ على لحمته.

فالنموذجان الأول والثاني يركزان على المهابة التي يتمتع بها المسن لمجرد أنه كذلك. وفي حين يسند النموذج الأول مصدر هذه الهيبة إلى القوة الإلهية التي لا معقب لأحكامها، يبين الثاني تسامي الشيب (العلامة المميزة للشيخوخة) عن العيب بشكل مطلق.

أما النموذج الثالث فيبرز الأساس الموضوعي لهذه المكانة، وهي مكانة تستند إلى أهمية التجارب التي جعلت الشيخ موسوعة معارف مفتوحة. وليس من الصعب أن نعيد هذه النظرة إلى مرجعياتها من التراث الديني الإسلامي من جهة، ومن التراث الإفريقي المحلي، حيث يضطلع المسنون بأدوار اجتماعية وروحية وتربوية مهمة.

ثانيا. في مجال الحياة الثقافية

النماذج:

1. أحذك من لكتوب81
2. أصل ماه قول مالك في المدونة91
3. الِّ يعرف الرسالة ما تغلبه امساله02
4. الِّ اخطأ النص يبقى يطمص12
5. لكرايه في الراص ماه اف فاس ولا مكناس22
6. ديرها اعلى رقبة عالم وامركها سالم32
7. العالم اتبع أقواله لا تتبع أفعاله42

إن أول ما يلفت المتتبع لهذه النماذج هو تلك المفارقة التي استوقفت الدارسين في أكثر من حقل وهي المتعلقة بالعلاقة بين العلم والاستقرار من جهة، وبينه وبين رفاه العيش من جهة ثانية. فإذا كان في حكم البدهي أن العلم مدني، وأن إنتاجه يستدعي فائضا في المال والوقت 52 ، فإن هذه البدهية تصطدم بالبادية العالمة في بلاد شنقيط. ولعل في هذه النماذج ما يغني.

ففي الأمثلة الأول والثاني والثالث. تتضح العلاقة الحميمة بين المتن العلمي الرصين مجسدا في عموم الكتاب أولا (النموذج الأول)، وفي المراجع المعتمدة في عموم المنطقة بعناوينها

الصريحة (النموذجان الثاني والثالث) وبين المأثور الشعبي. ثم إن صيغة النموذجين تشي بمستوى الثقة في المتون الرسمية (ممثلة في «المدونة» و»الرسالة») حيث تصل حد الغاية التي لا مزيد عليها.

أما في النموذجين الرابع والخامس، فإننا أمام المعطى العلمي مصحوبا بآلية التحصيل المعتمدة في المنطقة بدافع الوضع الاقتصادي الهش (رعاة يتبعون الأنعام سحابة يومهم) ونتيجة ندرة وغلاء الورق في المنطقة. إنه منهج الحفظ والاستظهار والتعويل على الذاكرة بدل الوثيقة المكتوبة. وهو منهج غيرغريب على الثقافة العربية الإسلامية على كل حال. ولنتذكرقول الشافعي:

علمي معي حيث ما يممت يتبعني قلبي وعاء له لا جوف صندوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أوكنت في السوق كان العلم في السوق

ولكن للحافظة كآلية لتحصيل العلوم أصالتها الخاصة لدى سكان هذا الجزء من الصحراء الكبرى.

أما في النموذجين السادس والسابع، فنحن أمام النتيجة المترتبة على ما سبقها. فإذا كان الكتاب هو رفيق ساكن الصحراء في باديته وأنيسه في خلوته، فلا يستغرب أن ينتصب العالم في فضاء السيبة هذا مرجعا يعود إليه الناس بملء إرادتهم ويتبعون فتاواه وأحكامه بكل رضى. فيذعن له من لا يعرف سلطة يذعن لها، ويرضى بأقواله متخاصمون لا تحملهم سلطة على ذلك.

ثالثا. في التربية

النماذج:

الشوكة من سغرتها امحده62

العشاء والقراية ما ينقضاو72

بوصوم ألا من الكوم واللا ما عليه اللوم82

الحاذق بو غمزة والفاسد بو دبزه92

العلم ما فيه سحوة03

بتمعن هذه الأمثال يمكن استخلاص الملاحظات التالية:

على مستوى النموذجين الأول والثاني نجد تفطنا إلى أهمية المراحل الأولى من حياة الطفل في العملية التعليمية، وتنبها على أن أي إهمال قد يقع في تلك المراحل لا يمكن تعويضه.

وفي النموذجين الثالث والرابع ينصب الاهتمام على الأسلوب الأنجع في العملية التربوية سواء استهدفت المجال العلمي أواقتصرت على تعديل السلوك الاجتماعي. ومن الوارد هنا أن نلاحظ

تفطن المثل لاختلاف الوسيلة تبعا لطبيعة الحالة التي يتوجه إليها الفعل التربوي، فهناك تدرج يمتد من الإيماءة الخفية (بوغمزة) فالتعريض الخفيف (ألا من الكوم واللاّ ما عليه اللوم) إلى أن يصل حده الأقصى والأعنف متجسدا في الضرب المبرح (بودبزة).

وفي النموذج الخامس نصل إلى هدف العملية التربوية الأسمى وهو تحصيل العلم حيث تخرق النواميس وتتبدل العادة الصارمة. فإذا كانت السحوة (وتعني احترام مواضعات اجتماعية بعينها تنظم العلاقة بين أفراد المجموعة الاجتماعية) علامة الرشد وقوة التكيف والتأقلم مع نواميس الجماعة، وهي بذلك شرط القبول الاجتماعي، فإنها بالنسبة للمتعلم غير مطلوبة. إن مجال العلم هنا يصبح مجالا اجتماعيا مختلفا له مواضعاته ومحدداته التي تسمو على كل محددات أخرى. إنها مرة أخرى روح التعلق بالمعرفة، وجعلها قيمة تسمو على القيم.

رابعا. في الاقتصاد

النماذج:

إلى جارا عليك الدهر جور اعلى التراب13

الّ اردم زرعه اردم راصه23

الّ ما ارعاها خضرة ما يوكلها حمرة33

الّ ما يحلب بيده ما يبياظ اخديده43

اتفركو اتعيشو53

أخير كوام من جياب63

أوقية في الكف ولا مية في السلف73

يوم ارفود الدين يوم هز الكفف ويوم اخلاصه يوم عظ اشفف83

يتضح من المثالين الأول والثاني أن مصدر الرزق الأكيد هو في الأرض. ولعل في ذلك بعض المفارقة بالنسبة لمنطقة معظم سكانها من البدو المتنقلين خلف مساقط الغيث يعولون على السماء أكثر من الأرض، وبالتالي على الأمطار وما تنبت من عشب بري أو تضفيه على الأشجار البرية أيضا من خضرة وما تكسوها من ورق يشكل مصدر غذاء للحيوانات التي عليها يقتات البدوي. ولكن تجارب الدهر بينت لهؤلاء -حسب منطوق المثل- أن الزراعة هي الموئل الأكيد حين تطغى نوبات الجفاف فتهلك النسل ولا يبقى إلا الحرث. وحينها تتبدل علاقة الإنسان بالأرض فلا يملك عنها انفكاكا (فهو

مردوم حيث ردم بذوره). إن الأرض هنا تتحول من مجال فسيح يتيح للإنسان خيارات انتقال واسعة تبعا لمتغيرات السماء (الأنواء والسحب) إلى مرتكز قار.

وفي النماذج الثالث والرابع والخامس نعاين نظرة السكان إلى الجهد بوجوهه المختلفة (في مجالات الفلاحة والرعي والتجارة)، وتثمينهم له. فعلى الجهد في هذه النماذج يتوقف المحصول، ويتحدد المردود المادي والمعنوي.

وتبين النماذج السادس والسابع والثامن تصور القوم عن كيفية نشوء الثروة وأنها لا تتوقف على عنصر الكد والإنتاج، بل هناك عنصر آخر لا يتحقق التراكم إلا عن طريق الأخذ به هو التدبير والاقتصاد في الإنفاق. وفي هذا النطاق ينتصب الدين بوصفه عدو المال ومرادف الفاقة والعجز. ونظرا لطبيعة المديونية المنافية -في هذه الرؤية- للوفرة المالية فإن منظومة الأمثال تنظر إليها من زاويتي المدين والدائن حيث يحذر الأول من استسهال نشوة القبض (هز لكفف) بوصفها مخرجا مؤقتا من حالة صعبة، لأن هذا المخرج سيؤول بالدائن إلى حالة أصعب (عظ اشفف).

أما الدائن فتدعوه إلى التبصر والاكتفاء بما تيسر من ثمن مقبوض (أوقية في الكف)، وعدم الانخداع بالأرباح الخيالية التي يقبل المدينون تحملها (مائة في السلف). وهي نظرة يسهل فهمها في فضاء لا توجد فيه سلطة متغلبة تنصف الناس بعضهم من بعض. وحتى إذا وجدت هذه السلطة فإن الفقر المنتشر يعجز أغلب السكان عن الوفاء بديونهم.

إن هذه النماذج تمنحنا تصورا كاملا عن «الفلسفة» الاقتصادية في هذا المحيط البدوي، وهي فلسفة ترتكز على تصور متكامل عن مصادر تكون الثروة من أرض وجهد وتدبير، وعن آليات الحفاظ عليها.

خامسا. في التكيف مع المحيط

من المعروف أن التكيف خاصية جميع البشر. وبما أن المحيط الصحراوي معروف بالقسوة، فلا بد أن يكون الإنسان الصحراوي سريع التكيف مع مختلف الظروف. وتمكن معاينة هذا التكيف عبر مدونة الأمثال الحسانية من خلال النماذج التالية:

النماذج:

الّ ادخل غابة يزوي زي اطيورها93

الّ اصبر يلحكه الظل04

اتمسكن إلى تتمتن14

الّ ما اصبر نوبه إعود اعليه الدهر نوبات24

إن هذه النماذج الأربعة توضح ضرورة التكيف مع المحيط الذي يعيش فيه الإنسان وضرورة تعديل سلوكه حتى يتلاءم مع بيئته المستجدة.

ففي النموذجين الأول والثاني تبرز قيمة التكيف من خلال استعارة عناصر من الطبيعة (الطيروالشجرة) حيث يسند إلى الأول فعل تكييف اللغة التي يصدح بها مع ما تقوم به بقية طيور الغابة (البيئة المستجدة)، بينما يسند فعل التكيف إلى الإنسان صريحا في علاقته بالشجرة الثابت البيئي من خلال تمجيد قيمة الصبر انتظارا لتحول الظل إليه.

أما النموذجان الثالث والرابع فهما صريحان في اعتبار التكيف مفتاح النجاح في الحياة. فعبر الصبر على الأوضاع الصعبة (المسكنة) يبدل المرء وضعه فينتهي إلى وضعية التمكن.

وفي الوجه المقابل يبرز النموذجان أن من لم يعتمد طريق التحمل ومعالجة الأمور بالمرونة انتهى به الأمر إلى وضعية يتحول فيها الدهر ضده (نوبات عليه).

إن التكيف هنا ليس خيارا من الخيارات التي تتيحها الحياة بل ضرورة تمليها. فهو والحياة صنوان، أو قل هو تدبير الحياة.

سادسا. في تدبير الأمور أو سياسة الحياة

تبدو سياسة أو تدبير شؤون الحياة من أهم ما تناوله المثل الشعبي، سواء على المستوى الكمي، إذ يلاحظ الدارس تواتر الشواهد التي تتناول هذا الموضوع، أو على مستوى الكيف حيث تتعدد زوايا النظر. وتمكن معاينة ذلك على أربعة مستويات هي:

أ. اليقظة والتأني في الأمور

النماذج:

اتفكريش يعطب34

اتفكريش اغرور44

أخير اللي يرعاها سابك تلحكه54

أحكم أحكم الا اتزيد أحكيم64

اشروط الشح يلتقطو في الرخه74

تتوزع هذه النماذج على محورين:

أولهما يجسده المثالان الأول والثاني ويتعلق بالتنبيه على خطورة التهور وعلى عواقبه غير

المحمودة. حيث الطيش في المثال الأول مضر (يعطب)، وفي الثاني قد يقضي على كل شيء (اغرور).

أما المحور الثاني فهو خاص بمراعاة الحيطة والاستعداد لجميع الظروف. فبالنظر إلى النماذج الثالث والرابع والخامس، نجد تشديدا على أن توقع الأمور واستشراف الأحداث قبل وقوعها ضروري للنجاح في معالجتها بشكل صحيح، وأن التأكيد على اليقظة بشكل مستمر ليس حشوا بل هو سبيل ترسيخ انتهاج طريق الحذر والترقب في بيئة يمكنها أن تداهم الإنسان من كل الاتجاهات.

ب. التشاور والتعاون

النماذج:

أخير اللي وساها بجماعته وخسرت من اللي وساها وحده وصلحت84

الّ اخزاته اجماعته انخز94

حمل الجماعة ريش05

اتفاك رحمة15

ترسم هذه الأمثال علاقة الفرد بالجماعة حيث ينصهر فيها ويخضع لها خضوعا مطلقا، إذ هي في الآن نفسه مصدر القوة ومالكة السلطة.

فالنموذجان الأول والثاني يبرزان ضآلة الفرد أمام جماعته من خلال أفضلية النتيجة السيئة المتأتية عن الخيار الجماعي على النتيجة الحسنة المترتبة على الفعل الفردي من جهة، ثم بإبراز قدرة الجماعة على تحديد موقع الفرد وقيمته، فهي التي تضفي عليه الصفة وتمنحه النعت الملائم حسب سلوكه تجاهها وتبعا لامتثاله لضوابطها.

أما النموذجان الثالث والرابع فيفسران سيطرة المجموعة على الفرد بحاجة هذا الأخير إلى منظومة تقدم له العون وتمنحه إمكانية الحياة.

إنه منطق التكافل الاجتماعي في بيئة يعول فيها كل فرد على عون الآخر.

ج. احترام الزعامة

النماذج:

الّ بلا اكبير بلا آدبير25

أراي اكبيرك لا اتعانده35

اكلام اكبيرك لا اتخالفه45

إشوف الشيخ المتكي اللي ما شاف أفكراش الواقف55

تكاد النماذج الأول والثاني والثالث تتحد في الفكرة وإن اختلفت في التعبير بين المثل الأول الذي يركز على دور الزعيم كضامن لإحكام استراتيجيات العمل (آدبير)، وبين المثلين (الثاني والثالث) اللذين يكادان يتحدان في الصياغة وإن اختلفا في معظم المفردات. ففي هذين النموذجين يصوغ المثل أمرا أو نصيحة تترتب على مضمون المثل الأول. فما دام «آدبير»- بمنطوق المثل- لا يوجد إلا عند هذا «الكبير»، فإن أي عناد أو مخالفة له يترتب عليه بالضرورة ما لا تحمد عقباه.

ويقدم النموذج الرابع تعليلا للنهي والنفي في المجموعة الثلاثية أعلاه يعتمد على التجربة في اكتساب الحنكة وصحة تصور السيناريوهات المحتملة. إن الكبير هنا منجم للمعارف التي انبنت عبر تراكم التجارب وطول المراس.

ولعل مما أسهم في تكريس هذه النظرة إلى الزعماء الطريقة التي بها يتبوأون مكانتهم. ففي القبيلة يتم اختيار الزعيم من بين أبرز القوم وأسنهم وأكثرهم بلاء واستعدادا للبذل. ويترتب على الانتخاب أن يقوم الزعيم في شؤون الصغير والكبير والعظيم والحقير.

د. اليقظة تجاه العدو

النماذج:

1. العدو ما يرباوا65
2. قليل العداوة يضر75
3. بابت أركاج يفلش اعدوه85
4. الّ اطرح دبوسه تنغبط له95
5. ليلة فلشك هي ليلة حزمك وأيضا: ليلتك من الفلش إلى اركدتها تنتفش06

تتوزع هذه النماذج ثلاثة أفكار رئيسة.

فالنموذجان الأول والثاني يحضان على عدم الاستهانة بالعدو مهما كانت درجة عداوته. وفي حين يركز النموذج الأول الحساني صياغة ومضمونا على التدرج في العداوة انطلاقا من المرحلة العمرية (وهو ما تشير إليه عبارة «يربى» التي تعني أنه بعد صغير)، يركز المثل الثاني -وهو مثل عربي تم توطينه في اللهجة الحسانية بحيث يرد على ألسنة العامة والخاصة معا- على التفاوت في مستويات العداوة (قليل العداوة). فالعدو مهما كانت سنه أو درجة عداوته «يضر».

وفي النماذج الثالث والرابع والخامس تركز الصياغة على سذاجة من يأمن صولة عدو مهما بدت للعين العادية ظروف الأمان متوفرة. وما بين التشفي بمن يأمن العدو وبين الإلحاح على حتمية انتهائه إلى ما لا تحمد عقباه، تتباين الصياغات والمعنى واحد أو متقارب على الأقل.

وينفرد النموذج السادس بتنمية الدلالة في اتجاه تعميم فكرة التمسك بالسلاح، وهو هنا العصا (الدبوس) لا تجاه العدو فقط. وإنما تجاه الجميع لأن من يلقي سلاحه يستخدم ضده!. إنها الصياغة الحسانية لمقولة زهير القديمة «من لا يظلم الناس يظلم»؛ فهل هو منطق السيبة في صحراء لا يأمن الناس فيها إلا «تحت كتاب أوركاب»؟! أم هو الاستعداد الدائم للدفاع عن النفس؟

وختاما فإن نظرة سريعة إلى هذه المدونة الجزئية تقدم للدارس فكرة -ولو مجتزأة- عن جوانب من تميز المجتمع الموريتاني في نظرته لذاته وللأشياء من حوله، وفي إدارته للعلاقة بين مكوناته.

وعسانا بتحليل نماذج هذه المدونة نكون قد وفقنا في إلقاء بعض الضوء على سر ديناميكية هذا المجتمع وقابليته الخارقة لمواكبة التحولات. وهي ميزات يمكن -إذا ما توفرت الإرادات الخالصة والآليات المؤسسية والكفاءات البشرية الخيرة- أن تستثمر في اتجاه التسريع بوتيرة بنائه وعصرنته. كما يمكن -في ظروف الفقر والتخلف المعرفي وفساد الإدارة- أن تستغل في تفكيك منظومته القيمية وانفراط ارتباطاته الاجتماعية، وانجرافه -وربما انجراف المنطقة من حوله- لا قدر الله في منزلقات يصعب التنبؤ باتجاهاتها وبنتائجها.

البيبليوغرافيا:

باللغة العربية:

ابن منظور (جمال الدين محمد أبو الفضل)، لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلي، بيروت/لبنان، دارلسان العرب، 1970.

اعزيزي ولد المامي، موسوعة الأمثال الشعبية، مطبعة الأطلس، نواكشوط، 1998.

بكارولد أحمدو، الأمثال الحسانية، تاريخ ومكان النشرغيرمذكورين.

جمانة طه، موسوعة الأمثال الشعبية: دراسة تاريخية مقارنة، الدار الوطنية الجديدة للنشروالتوزيع، الخبر، المملكة العربية السعودية، 1999.

الزمخشري (أبو القاسم)، المستقصي في أمثال العرب، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدرأباد، 1925.

الشنقيطي (أحمد بن الأمين)، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، القاهرة، مكتبة الخانجي، مصرومكتبة الوحدة العربية، الدارالبيضاء، الطبعة 3، 1961

العسكري (أبو هلال)، جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دارالجيل، بيروت لبنان.

موسى ولد ابنو (تحت إشراف)، الحكايات والأساطيرالشعبية الموريتانية، اللجنة الوطنية لجمع ونشر الثقافة الشعبية والمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط:

حكايات الحيوان،

حكايات الإنسان،

الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية،

الميداني (أبو الفضل)، مجمع الأمثال.

باللغة الفرنسية:

Braudel, Fernand, Ecrits sur l'histoire, Flammarion, Paris, 1984.

Ould Ebnou, Moussa (Sous la direction de), Contes et Proverbes Populaires de Mauritanie :

Tome 1 : Contes d'animaux, l'Harmattan, Paris, 2008, 214 p,

Tome 2 : Contes merveilleux, l'Harmattan, Paris, 2008, 203 p,

16Tome 3 : Maximes et Proverbes, l'Harmattan, Paris, 2008, 336 p.

الهوامش

1 - انظر، جمال الدين محمد أبو الفضل ابن منظور، **لسان العرب**، إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرغشلي، بيروت/لبنان، دارلسان العرب، 1970: مادة مثل.

2 - نكتفي هنا نذكر:

- ✓ الزمخشري (أبو القاسم)، **المستقصي في أمثال العرب**، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، 1925.
- ✓ العسكري (أبو هلال)، **جمهرة الأمثال**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت لبنان.
- ✓ الميداني (أبو الفضل)، **مجمع الأمثال**.

3 - يعتبر أول محاولة جمع تهدف إلى تقديم صورة للآخرين عن ثقافة البلاد بصفة شبه شمولية: النظام التعليمي، العلوم الشرعية واللغوية، المدونات الشعرية، القبائل والسلاسل النسبية.

4 - أحمد بن الأمين الشنقيطي، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، القاهرة، مكتبة الخانجي، مصر ومكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، الطبعة 3، 1961، صص. 575-542.

5 - نذكر منها على سبيل المثال:

- ✓ بكار ولد أحمدو، **الأمثال الحسانية**، تاريخ ومكان النشر غير مذكورين، وهو يضم 1157 مثلا.
- ✓ اعزيزي ولد المامي، **موسوعة الأمثال الشعبية**، مطبعة الأطلس، نواكشوط، 1998، ويشتمل على 2394 مثلا.

6 - أوردنا النماذج في المتن بأصلها الحساني، ولكننا تسهيلا على القارئ العربي حاولنا شرح معانيها باللغة الفصحى.

7 - «من كانت معه المرأة كان الله معه» (يضرب لبركة النساء أو لقوتهن في بيوتهن)، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، اللجنة الوطنية لجمع ونشر الثقافة الشعبية والمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، المثل رقم 609، صفحة 103.

8 - "ينفذ الرجل (اللحية) في النهار ما تُقنعه به المرأة (الضفيرة) في الليل" (يضرب لتأثير المرأة على الرجل)، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل 621، ص. 105.

9 - «النساء عمائم الأجواد ونعال الكلاب» (يضرب للحث على تكريم النساء)، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 1900، صفحة 290.

10 - «فأل المرأة خيرمن تدبيرها» (يضرب لحث المرأة على التفاؤل)، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل رقم 2008، صفحة 334.

11 - «أعط المرأة قليلا تنتزع كثيرا» (يضرب لطموح المرأة الذي لا يكبح جماحه)، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل رقم 403، صفحة 76.

12 - «من ازداد بأنثى (أكافة وهوزي تضعه المرأة على رأسها) فكأنه لم يزدد» (يعبرعن عدم ارتياح المجتمع بميلاد الطفلة، وهي عادة جاهلية قديمة ظلت موجودة في المجتمعات العربية بعد الإسلام)، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل 614، ص. 104.

13 - «المرأة شجرة مقطوعة من أقبل عليها استحوذت عليه ومن أدبر عنها استطاع جرها»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل رقم 2414، صفحة 335.

14 - «تُقْدم البنت على فعل ما هو أشد وقعا (على الأهل) من ولادتها»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل رقم 64، صفحة 36.

15 - «الشيب وقره الله»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل رقم 1702، صفحة 246.

16 - «لا ينبغي للمسنّ أن يفعل ما يعاب به»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل رقم 1701، صفحة 246.

17 - «يرى الشيخ المضطجع ما لا يرى الشاب الواقف»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل رقم 333، صفحة 67.

18 - «أحصف من الكتب»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل رقم 95، صفحة 40.

19 - «ما أبعد هذا القول من قول مالك بن أنس في المدونة»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل رقم 358، صفحة 70.

20 - «من يعرف رسالة ابن أبي زيد القيرواني لن تعجزه أية مسألة»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل رقم 822، صفحة 132.

21 - «من أخطأ النص فقد تاه»، ومعناه أن من لم يستظهر النص ويحفظه بقي جاهلا، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل 560، صفحة 96.

22 - «توجد المعرفة الحقيقية في الذاكرة لا في فاس ولا في مكناس» (يضرب لضرورة تحصيل ما في الصدور والعناية بالحفظ والاستظهار)، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل رقم 2047، صفحة 289.

23 - «أرجع المسألة إلى قول العالم تسلمْ منها»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدرسابق، المثل رقم 1448، صفحة 214.

24 - «اتبعْ أقوال العالم لا أفعاله»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية**

الموريتانية، مصدر سابق، المثل رقم 560، صفحة 96.

25 - يقول ف. بروديل: «لا بد لكل ثقافة من فائض اقتصادي طالما استهلاك، بل هي إسراف"، راجع:

Fernand Braudel, **Ecrits sur l'histoire**, Flammarion, Paris, 1984, p. 298.

26 - "الشوكة تبدو حادة منذ نشأتها" (يضرب في كون علامات النبوغ تظهر مبكرا)، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 1699. صفحة 246.

27 - «العشاء والدروس اليومية لا يصح قضاؤها» (يضرب للحث على مواصلة التعلم وعدم هدر الوقت)، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 1873، صفحة 267.

28 - «إذا بلغ الإنسان الحلم ولم ينجح في أخذ موقعه في المجتمع، فهو غير مخاطب فلا لوم عليه»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 1124، صفحة 171.

29 - «الحاذق يُغمز والأحمق يُضرب»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 1269، صفحة 191.

30 - «لا استحياء في العلم»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 1896، صفحة 270.

31 - «إذا جار عليك الدهر فلتجرْ على الأرض» أي إذا أصابتك الشدائد فأغرس الأرض واستغلها، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، المثل رقم 638، صفحة 107.

32 - «من زرع بذره زرع رأسه (نفسه)» (يضرب لارتباط المزارع بالأرض)، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 568، صفحة 97.

33 - «من لم يرعها خضراء (أي النخلة) لن يأكلها حمراء (أي تمرا)»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 752، صفحة 123.

34 - «من لم يحلب بيده لم يبيض خده»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 784، صفحة 127.

35 - «انتشروا في الأرض، تعيشوا» (يضرب في الحث على طلب الرزق)، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 53، صفحة 34.

36 - «أن تحافظ على الثروة أولى من أن تبحث عن ثروة جديدة» أي أن «حفظ الموجود أولى من طلب المفقود» كما في المثل الفصيح، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 180، صفحة 50.

37 - «أوقية واحدة متوفرة خيرٌ من مائة أوقية في ذمة مَدين»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 534، صفحة 93.

38 - «يوم تَحمُّلِ الدين تُهز اللممُ (فرحا) ويوم قضائه تُعض الشفاه (أسفا)» (يضرب لفرحة أخذ الدين ولحسرة قضائه)، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 2736، صفحة 375.

39 - «من دخل غابة قلّد أصوات طيورها»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 565، صفحة 97.

40 - «من صبر وصل إليه الظل»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 576، صفحة 99.

41 - «تمسكنْ حتى تتقوى»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 294، صفحة 63.

42 - «من لم يتحمل قسوة الأيام مدة محدودة كانت أيامه كلها شحا»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 754، صفحة 123.

43 - «التهور مدعاة للعطب»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 55، صفحة 35.

44 - «التهور خطير»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 56، صفحة 35.

45 - «تفادي الأمر قبل وقوعه أسلم»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 177، صفحة 50.

46 - «حضُّك الإنسان على ما يتمسك به لن يزيده إلا تمسكا»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 109، صفحة 41.

47 - «شروط الشح تجمع في الرخاء»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 318، صفحة 66.

48 - «أن تخطئ مع الجماعة أفضل من أن تصيب وحدك»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 176، صفحة 50.

49 - «من خذلته جماعته خُذل»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 559، صفحة 96.

50 - «حمل الجماعة خفيف مثل الريش»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 1331، صفحة 199.

51 - «الرفقة رحمة»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 51، صفحة 34.

52 - «من لا كبير له لا تدبير له»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 537، صفحة 93.

53 - «لا تخالف رأي كبيرك»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 217، صفحة 54.

54 - لا تخالف كلام كبيرك»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية**

الموريتانية، مصدر سابق، المثل رقم 497، صفحة 88.

55 - «يرى الشيخ المضطجع ما لا يرى الشاب الواقف»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية، مصدر سابق، المثل رقم 333، صفحة 67.

56 - «لا تربي عدوا»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية، مصدر سابق، المثل رقم 1859، صفحة 265.

57 - مثل فصيح يضرب لعدم الاستهزاء بالعداوة ولو قلت، موسى ولد ابنو (وآخرون)، الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية، مصدر سابق، المثل رقم 2034، صفحة 287.

58 - «ذلك جزاء من يأمن شر عدوه»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية، مصدر سابق، المثل رقم 1158، صفحة 175.

59 - «من رمى عصاه استخدمت ضده»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية، مصدر سابق، المثل رقم 577، صفحة 99.

60 - «ليلة اطمئنانك هي ليلة حذرك»، موسى ولد ابنو (وآخرون)، الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية، مصدر سابق، المثل رقم 2240، صفحة 313.